يجري ليملأ الفراغ الذي احدثهُ القمر او الشمس بضغطها للارض وهذه الحركة وهذا الاجتماع يحتاجان الى زمان وكون الزمان اطول عند اجتماع المدين هو لان الفراغ عندئذٍ يكون اعظم فيحتاج سدّهُ الى ماء اكثر واجتماع الماء الاكثر يحتاج الى زمان اطول

بغداد جميل صدقي الزهاوي

امة البربر (١)

نظرة عمومية — اسماؤهم مساكنهم — اقسامهم

البربر امة كبيرة تنزل الشمال الغربي من افريقية وقد صار لهذا الاسم الآن على الخصوص قيمة تاريخية وهو وان استعمل عادة واطلق في العرف على طائفة من الشعوب البشرية ذات صفات خاصة متميزة تميزاً تاماً الاّ انهُ لا يكاد يعرف في الاصطلاح الرسمي وسبب ذلك بلا شك ان اسم هذا الجنس اصبحت في نفسها لعدم وجود علوم آداب لها لا تعرف هذا اللفظ الاّ بطريق الاسناد البعيد او بسبب علاقاتها الحالية مع اوربا ولا تستعملهُ اصلاً فيما بينها لان التسميات الجزئية كاسماء القبائل واسماء المجتمعات الجغرافية مثلاً قد تخرج بالاسم الاصلي الملي الابتدائي عن الاستعمال وتلقيه في زوايا النسيان

ومع ذلك فان هذا الاسم الاصلي لا بد وان يكون قد انتشر قديماً انتشاراً عظيماً فكان في كل المنطقة الشمالية من افريقية وهي المنطقة التي تنتهي من جهة بحر الهند بواسطة حوض نهر النيل ومن الجهة الاخرى بالمحيط الاطلسي (الاتلنتك) بواسطة جبال اطلس قال ابن خلدون هؤلاء البربر جيل وشعوب وقبائل اكثر من ان تحصى . وقال ايضاً ولم تزل بلاد المغرب الى طرابلس بل والى الاسكندرية عامرة بهذا الجيل بين البحر الرومي وبلاد السودان من ازمنة لا يعرف اولها ولا ما قبلها . اه

ولو قطعنا النظر عن العناصر الاجنبية المعروف في التاريخ دخولها في افريقية لأنتج معنا علم الشعوب (الاثنوغرافيا) القاعدة الآتية وهي ان كل من ليس بأسود في شمال افريقية هو بربري . وقد قال مؤلفو الاغريق واللاتين وجغرافيو العرب من بعدهم بوجود بربر في بلاد السودان الحالية وعلى الساحل الغربي من البحر الاحمر ولا تزال الحال كذلك الى اليوم

(١) من كتاب انسان في تخطيط البلدان وهو الدروس التي القاها حضرة اسعيل بك رأفت في الجامعة المصرية

فان وادي النيل من الخرطوم حتى حدود مصر تسكنهُ قبائل اصلها واحد ولا يزال بعضها الى الآن يتسمى بالبربر (برابره) وهو الاسم الذي نسي عند اغلب اخوتهم . ويعلم من اقوال مؤلفي الاسلام ان الواحات الواقعة في الغرب من وادي النيل الغربي وكذا الواحات التي شمال الصحراء الكبرى كانت حتى القرون الاولى من الاسلام تسكنها كلها بلا استثناء امم بربرية وانهم وان كان العرب طردوهم من ذلك الوقت من الواحات الشرقية الاَّ انهم استمروا يسكنون كل الواحات الشمالية من اول سيوه حتى بلاد مزاب وتوات ثم ان الامم التي تتكلم لغة البربر تؤلف مهما اختلفت اسماؤها الاهلية مجموعة متكاثفة في كل افريقية الشمالية الغربية من اول بلاد فزان حتى مضيق جبل طارق والمحيط الاطلسي

ويطلق على هذه الجهة من افريقية في الاصطلاح العادي لفظ بلاد البربر متى استعمل من غير تخصيص وتعيين خاص هذا عدا القبائل العديدة المتفرقة في الواحات الداخلية من الصحراء الغربية بين بلاد الجزائر ومدينة تمبكتو وعدا الامم المختلطة الاصول النازلة على حدود بلاد السودان او التي دخلتهُ منهم مثل مغاربة السنغال الاسفل ومثل قبائل الحوصه وربما كان منهم ايضاً الفُلاته والتبو هذه هي اهم قبائل البربر وعلى ذلك كانت هناك سلسلة من الامم يدل على انها من اصل واحد شكل اراضيها الطبيعي وتجاورها الجغرافي وشهادة التاريخ وتقاليدها القديمة واشتراكها في الاسم الاصلي الاهلي وتكلم الكثير من قبائلهم لهجة واحدة . واعلم ان الرابطة الاخيرة وهي رابطة اللسان اصبحت غير موجودة بين بربر افريقية الشرقية وكذا بين بربر بلاد النوبة ولكنها محكمة العرى بين كل بربر الشمال والشمال الغربي من اول سيوه حتى مراكش ونهر تمبكتو لهذا لا نتكلم في هذا الفصل الاَّ على الاخيرين منهم تاركين الكلام على غيرهم الى ان نتكلم على بلادهم كما سيأتي في بلاد السومال والنوبة والتبو والحوصه والمغاربة والفلاته وغيرهم

وينقسم بربر الشمال الغربي الى ثلاثة اقسام اصلية وهي اقسام تاريخية وجغرافية معاً وهي قبائل الجزائر وبعضها يسمى بالشاوية او الرعاة وهم ينزلون جبال عمالة قسطنطينة . ثانياً شلوح مراكش . ثالثاً توارك الصحراء . اما بربر تونس وطرابلس فليس لهم لفظ واحد جنسي يدخلون تحتهُ . ولما كان التوارك منفصلين انفصالاً تاماً وبعيدين عن كل مخالطة مع العرب كانوا اصفى واخلص القبائل التي تشخص هذا الجنس وكنا نجد ايضاً في دراسة لغتهم على الخصوص وكذا في الوقوف على عوائدهم ورسومهم الصفات الاصلية للامة البربرية

اشتقاق اسمهم — اعلم ان لفظ بربر كأغلب اسماء الامم ضائع الاصل في ظلمات التاريخ .

والاشتقاقات التي قالوا ان ذلك اللفظ مشتق منها هي اما وهمية او قد جازفوا فيها مجازفة شديدة ومع ذلك فان عموم العلماء قد قبلوا احدها على علاته وهو ما كان لهُ علاقة بلفظ بَرْبَرُس وهو الاسم الذي كان الرومان ينعتون به اغلب الامم الاجنبية كما فعل الأغريق من قبل . وكان الأغريق والرومان يطلقون هذا اللفظ على الامم غير المهذبة ذات الاخلاق الخشنة كما يستفاد من معنى اللفظ الذي رجحناهُ على غيره بل كانوا يطلقونهُ ايضاً على كل من يتكلم لغة غير لغة اثينا ولغة رومية . الاَّ ان هناك مع ذلك ما يخالف هذا القول مخالفة تامَّة وذلك مثل تعميم الاسم الاصلي الواحد في كل المنطقة التي يسكنها الجنس المذكور ودوام هذه التسمية عند بعض القبائل كبربرة بلاد النوبة الذين يستحيل قبولهم تسمية اجنبية غير اسمهم الملي . وزيادة على ذلك فقد ثبت بشهادة الادلة والآثار ان هذا الاسم كان مستعملاً قبل ظهور الاغريق والرومان في التاريخ بمدة قرون . ففي احدى قاعات هيكل الكرنك كتابة من زمن رمسيس الثاني المعروف بالكبير ورد فيها ان من امم الجنوب (يرند انيويا) التي قهرها الفرعون المذكور واخضعها ذكر البيرابيراتا وهذا اللفظ لا يمكن ان يكون الاَّ برابرة النوبة الحاليين وقد مضى على هذه الكتابة اكثر من الف واربعماية سنة قبل الميلاد فنستنتج من ذلك ضرورة ان لفظ بربر اسم ملي او اسم اصلي يطلق على تلك الامة لا غير . ومما لا شك فيهِ ايضاً ان هذا الاسم كان قديماً اسماً عمومياً يطلق على امة من الامم وجنس من الاجناس وانهُ يتعاقب الازمنة وتكرار الدهور وبسبب انفصال القبائل وتشتتها وابتعادها بعضها عن بعض نسي اكثير منها الاسم القديم او انها حافظت عليهِ مع تسميتها باسماء محلية ومع عدم نسيانها لهُ تماماً كما في بعض الجهات . واما اطلاق الاسم على الجنس بتمامهِ فهو اطلاق منهم من الازمنة القديمة ولم يكن الرومان يجهلون هذا الاسم ولكن سهل عليهم مزجهُ بلفظة بربروس واطلاقهُ على تلك الامة ولم تعد لهذا الاسم قيمتهُ التاريخية بافريقية الغربية الاَّ بعد الفتح العربي . ويسمي مؤلفو المسلمين البلاد التي بين برقه وبحر الظلمات احياناً بلاد البربر كذلك فعل ابن خلدون في تاريخهِ الذي الفهُ على هذه الامة الكبيرة حيث سماهُ تاريخ البربر

قال ابن خلدون « هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملأوا البسائط والجبال من تلوله وارباضهِ وضواحيهِ وامصارهِ يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر ويظعن اهل العز منهم والقلة لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة لا يجاوزون فيها الريف الى الصحراء والقفار الأملس ومكاسبهم الشاء والبقر والخيل

في الغالب للركوب والنتاج وربما كانت الابل من مكاسب اهل النجعة منهم شأن العرب ومعاش المستضعفين منهم بالضأن ودواجن الساحة ومعاش المعتزين اهل الانتجاع والاظعان في نتاج الابل وظلال الرماح وقطع السابلة . ولباسهم واكثر اثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالاكسية المعلمة ويفرشون عليها البرانس انكى . ردؤوسهم في الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق ولفتهم من الرطانة الاعجمية متميزة بنوعها »

صورتهم الاصلية الطبيعية — اعلم ان القبائل المتصلة النسب بجنس البربر الكبير متفرقة في كل النصف الشمالي من افريقية وليس بينهم اتصال ولا تجمعهم ذكرى عامة لحادثة من حوادثهم الا انهم كلهم يتلاقون في نقطة واحدة سواء في ذلك منهم قبائل جهات النيل وقبائل الصحراء او الجبال وهذه النقطة هي كونهم من الامم البيضاء كما ان القبائل السوداء من الجنس الاسود حتى ان الذين اسودت بشرتهم منهم بشمس الجهات المدارية او غلظت تقاطيع وجوههم وتغيرت شعورهم بامتزاجهم بالدم الاثيوبي يظهرون نفوراً شديداً من تسميتهم باسم سودان . فبربر جبال اطلس وحتى عموم التوارك الذين وجدوا في ظروف ساعدتهم على حفظ دمهم خالصاً كلهم في الحقيقة اوربيون من حيث شكلهم الطبيعي وكثيرون منهم ليسوا اكثر سمرة من اهالي صقلية او الاندلس وكثيرون منهم ايضاً بيض كفرنسوي الشمال . واذا قارنا البربري بالعربي او الاوربي وجدناهُ يختلف في هيئة الوجه فقط لا في الصورة الاصلية فوجههُ ربما كان اقل استطالة عن وجه العربي وانفهُ اقصر واقل تحدباً من انف العربي وفكهُ وذقنهُ اكبر منهما في العربي ومجموع جسمهِ اقل رشاقة وعيناهُ وشعرهُ سود على العموم ومع ذلك فاننا كثيراً ما نجد بين البربر عيوناً زرقاء وشعوراً شقراء كما سبق مما لا يوجد في العربي . قال بعض السياحين ان الكثير من القبائل ذوي اللون الفاتح والشعور الشقراء يشبهون فلاحي اوربا الشمالية اكثر من مشابهتهم سكان افريقية وذكر كثيرون غيرهُ هذا القول وقد نسبوا هذا التباين في الغالب الى الاختلاط بالرندال ثم بجالية الرومان . غير ان هناك من الاقوال ما ينقض ذلك منها دليل قبل زمن هيرودوت يذكرهُ سيلكس في سياحتهِ وهو قولهُ ان هناك قبيلة شقراء نازلة حول خليج سرت الصغير في ايالة تونس الحالية

ثم اننا نشاهد بين الصور المرسومة بالمقابر المصرية التي يصعد تاريخها الى القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد امم افريقية الغربية مرسومين بجلود حمراء وعيون زرقاء وشعور حمراء او شقراء وهذه الخصوصية وهي خصوصية الصورة

الشقراء بين البربر ليست مبثوثة قبائل بلاد الجزائر فقط بل توجد ايضاً بين شلوح مراكش وتوارك الصحراء حتى ان الشعور الشقراء وهي بين كل قبائل البربر تعتبر من علامات الجمال في النساء. ويشاهد هذا التمييز على قلته في البلاد التي كانت تسكنها البربر بافريقية الشرقية قديماً فهو عند قبائل افار بتاجورة كما هو عند القبائل الاخرى النازلين حول خليج سرت. وقد بسطنا الكلام نوعاً على هذه الميزة الطبيعية لانها تلازم جنس البربر وربما كان من المفيد ان نذكر ايضاً ان هناك خاصية مشابهة لهذه الخاصية بين اغلب الاجناس ذوي الشعور السوداء الذين هم من الاصل الهندي الاوربي فانها في ايران والقوقاز وبين الصقالبة وقدماء الاغريق كما هي بين الحديثين منهم وبين القلت (Celtes) وغيرهم من الامم

لغة البربر وكتابتهم — اعلم ان البلاد التي تسود فيها الآن لغة البربر تبتدئ من سيوه شرقاً حتى مراكش غرباً ومن هناك تنحدر نحو الجنوب والجنوب الشرقي حتى مواحل سنغال ونهر ديوليبا عند اطراف بلاد السودان وذلك عبارة عن بلاد فزان وما جاورها من الواحات وجهات اطلس وكل الصحراء الغربية. واعلم ان اللغة البربرية ليست هي المنتشرة بمفردها في هذا الاتساع العظيم بل تزاحمها في الجهات المذكورة اللغة العربية حيث تنزل قبائل عربية عديدة ولكن للبربرية السيادة ولا حرج عليها في ذلك لانها في نفس بلادها بل ان مزاحمة العربية لها وتعديها عليها يعد ظلماً وعدواناً. واللغة البربرية واحدة في اعتبار العلماء ولكنها تنقسم في اصطلاح القبائل الى لهجات كثيرة وتنقسم تلك اللهجات ايضاً الى اقسام اخرى. وقد علم اهل اوربا بوجود اللغة البربرية في الشمال الغربي من افريقية منذ نحو قرن من الزمان. واعلم ان استيلاء فرنسا على الجزائر صير لدراسة هذه اللغة اهمية سياسية وعملية (وكان ذلك من سنة ١٨٣٠) وحصلت من ذلك الوقت ابحاث جدية اخذت اهميتها تظهر بالتدريج وألف كثير من ارباب البحث مؤلفات عديدة في لغة البربر ولهجاتهم وألف آخرون في العلاقات التي بين لغة البربر واللغات السامية وفي العلاقة التي بينها وبين القبطية ولغة التلاً وتزداد اهمية هذه الابحاث كلما زاد علم العلماء باصل البربر وتوارك الصحراء. ويسمي شلوح مراكش لهجتهم باسم تماشك او تمازغت وسنذكر معنى هذه التسمية عند الكلام على التوارك

وقد حافظ التوارك على لغتهم التي كان يتكلم بها اهل نوميديا وقبائل الجيتول[1]

(١) Gétules — هم قبائل حربية كانوا ينزلون قديماً جنوبي نوميديا من اول بلاد الجرمنت حتى بحر الظلمات وكثيراً ما جندت منهم قرطاجنة عسكراً واشهر امم الجيتول المذكورون والجيتول السود

كما حافظ عليها ايضاً سكان الواحات وسكان اطلس حافظوا كذلك على شيء لا يوجد عند البربر الآخرين الا وهو الكتابة البربرية التي يصعد تاريخها على الاقل الى زمن تأسيس قرطاجنه ويعد اكتشاف هذه الكتابة التي لم يكن يعلم بوجودها احد باوربا ولم يذكرها العرب من الحوادث المهمة الجديدة لان اكتشافها كان في سنة ١٨٢٢ فقط (ومع ذلك فقد اشار ليون الافريقي الى وجودها اشارة ولكنها مبهمة وذكرها الادريسي في كتابه)

اما كيفية هذا الاكتشاف فهي ان سائحاً فرنسوياً يسمى الدكتور اودني (Dr. Oudney) شاهد في سفره من مرزوق الى غات حروفاً منقوشة على صخور هناك ولما كانت هذه الكتابة لم يذكرها احد من قبل لم يعرف السائح المذكور في بادىء الامر الى اي الكتابات يجب ارجاعها ثم لما اخبره الاهالي هناك بمضمونها اعتقد انهُ كانت لهم كتابة خاصة بهم مجاراة للعرب في ذلك وفي سنة ١٨٤٥ سمع احد ضباط الفرنسويين بعمالة قسطنطينة بوجود كتابة مستعملة لدى سكان واحة توات تسمى تفيناج ونقلوا لهُ منها اثني عشر حرفاً ولما نظر فيها وجدها توافق الاحرف التي رسمها السائح اودني المتقدم ومن ذلك الوقت شاهد السياح هذه الاحرف والكتابات او ما يقاربها بواحات غدامس وبنغازي وغيرها ولما شاهد تلك الاحرف علماء اوربا الذين يشتغلون بالكتابات السامية القديمة اندهشوا جداً لمشابهتها الاحرف اللوبية التي عمت من نحو قرنين مضيا والتي شوهدت محفورة بجانب كتابة قرطاجنية على قبر واقع على يومين او ثلاثة الى الجنوب من خرائب قرطاجنة . وقد صدق العلماء في ظنهم وقامت الادلة والشواهد على ذلك . قال بعض العلماء ان الحروف الهجائية اللوبية او النوميدية التي يستعملها البربر الآن كما في السابق في كتابة لغة غير سامية هي احدى المشتقات العديدة الآتية من الكتابة الآرامية القديمة الاصلية وانها تشبهها في بعض اجزائها بل وتقرب منها اكثر من قربها من اللغة الفينيقية . ولا يذهب الظن بالقارئ مع ذلك الى ان اللوبيين وصلت اليهم الكتابة من قوم اقدم عهداً من الفينيقيين انفسهم وكل ما يمكن استنتاجهُ من ذلك هو ان الحروف اللوبية هي من الحروف الفينيقية خرجت منها في عصر يصعد الى ما قبل العصر الذي وضعت فيهِ الحروف الفينيقية التي وصلت الينا .

والافرنون والنائل ويقال ان الجرجون اول من سكن افريقية وكانت معيشتهم محجية بالقرى واقدم ملوكهم يسمى افريقس وكان معاصراً لديدون وبنا هرم جيرقرطه التجأ اليهم وألف منهم جيشاً تمكن بهِ من متابعة القتال مع افرومار زمناً طويلاً ويقال ان بعض القبائل ببلاد الجزائر متناسل منهم